- ١٨ -

أصبح واضحا بعد أن أرسل النبى ﷺ جيشه إلى مؤتة بقيادة زيد بن حارثة ليظهر للغساسنة الذين كانوا يخضعون للحكم الرومانى والذين كانوا يعتمدون على سادتهم الرومان.. أن الإسلام من القوة بحيث لا يخشى سطوة الرومان، وأن على الغساسنة أن يعرفوا هذه الحقيقة وأنهم ليسوا بمنأى عن الانتقام.. فلم يقبل النبى هذه الجفوة التى قابل بها الغساسنة رسوله إليهم، فقد ألقى الحارث بن أبى شمر الغسانى كتاب النبى فى وجه حامله من قبل الرسول وهو شجاع بن وهب الأسدى.. وبلغت به الحماقة أنه هدد بأنه سوف يزحف بجيشه لمحاربة النبى.. كما قتل رسول النبى (الحارث بن عمير) الذى كان يحمل رسالة إلى حاكم بصرى من النبى ﷺ فإذا بشرحبيل بن عمر الغسانى، أن قتله..

وكان الغساسنة يتصورون أن قوة الامبراطورية الرومانية الشرقية لا تقهر، وأن النبى لا يجرؤ على مجابهتهم، وهم يملكون من القوة والعتاد بجانب الدعم الرومانى الشئ الكثير، لكنهم فوجئوا بجيش المسلمين الذى كان يقوده زيد بن حارثة، وفوجئوا بأن هذا الجيش القليل العدد يحارب بضراوة منقطعة النظير، وقد استشهد زيد بن حارثة، وجعفر بن عبد المطلب، وعبد الله بن أبى رواحة، إلى أن استطاع خالد بن الوليد أن ينسحب بالجيش، ويعود إلى المدينة بأقل الخسائر.

وإذا كان الغساسنة والرومان قد فطنوا إلى خطورة الدولة الإسلامية الناشئة وقوة عزيمتها، فإن النبى ﷺ لم يكن يرى فى معركة (مؤتة) هزيمة عسكرية، وكان يرد على من يعلق على خالد بن الوليد وجيشه بالفرار بأنهم

الكرار بمشيئة الله.. وإذا بعبقرية النبى العسكرية والسياسية تبلغ القمة، وهو يقود جيشاً مكوناً من ثلاثين ألف مقاتل، فى ظروف فى غاية القسوة، ليرد على شهداء مؤتة، وهو يتجه نحو (تبوك).. ويعطى للمسلمين درسا فى قوة الإرادة، وعدم الخوف من مجابهة القوة الرومانية، بل أن الله جل علاه، قد أراه أن هذه البلاد الرومانية والفارسية سوف تقع تحت سيطرة المسلمين.. وقد قال للمسلمين ذلك أثناء حصار الأحزاب له فى المدينة !

وقد زحف النبى بجيشه لرفع الروح المعنوية لجنود المسلمين وإشعارهم بأنه بإمكانهم هزيمة الرومان وحلفائهم من عرب الشمال.. ولكن الرومان الذين كانوا قد احتشدوا فى شمال شبه الجزيرة العربية آثروا التقهقر داخل الشام، وعدم مواجهة النبى.. وهكذا ارتفعت معنويات المسلمين، وتيقنوا انه يمكنهم قتالهم والانتصار عليهم ..وهكذا لم يعد هناك من يخاف الرومان.. وهذا ما نراه فى خلافة الصديق والفاروق، يوم تحرك جيش المسلمين كالإعصار ليحطم أعظم إمبراطوريتين عرفهما التاريخ.. وهما الامبراطورية الفارسية والامبراطورية الرومانية.

والغريب أن بعض مؤرخى الغرب يحاولون وهم يلقون الأضواء على هذه الغزوة التاريخية أن يظهر أن دولة الفرس ودولة الروم وقد أصابهما الضعف نتيجة حروبهما الطويلة فيما بينهما ! بهذا يحاولون تبرير هزيمتهما الساحقة تحت ضربات جيش المسلمين.. وهذا تبرير سخيف، لأن كلتا الامبراطوريتين كانتا فى قمة القوة.. وكانت فارس تخضع لها العراق، وكانت الامبراطورية الرومانية الشرقية يخضع لها الشام، والشمال الإفريقى كله حتى المحيط الأطلنطى !

ويبلغ السخف ببعض المؤرخين الغربيين أيضا القمة عندما يقولون أن العرب قد خرجوا من جزيرتهم ليواجهوا العالم الخارجى.. يواجهون الفرس، ويواجهون أوربا لأول مرة فى التاريخ متمثلة فى الدولة البيزنطية ..

وأن هذه المواجهة كانت بدافع اقتصادى لأن شبه الجزيرة صحراء جرداء فلما شعروا بقوتهم أرادوا أن يضموا تلك الممالك المتاخمة لحدودهم.. وهذا وهم فلن تكن هناك مجاعة فى شبه الجزيرة اضطرت العرب للخروج بحثا عن لقمة العيش متخفين وراء الدافع الدينى ولكنهم خرجوا وهدفهم الأول هو الجهاد لإعلاء كلمة الله، ودين الله ..ونشر الحضارة الإسلامية، لأن رسالة الإسلام قد وضعها الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز، وهو يقول لنبيه أنه مبعوث البشر جميعا:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ:٢٨].

وأيضا قوله:

﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [يس: ٧٠].

.. ونحن لا يهمنا أقوال المؤرخين المغرضين الذين يبحثون عن ثغرات للطعن فى الإسلام ونبى الإسلام..

فالإسلام بعد تبوك.. أصبح قوة يعمل لها ألف حساب.. وعاد النبى الكريم بعدها إلى المدينة، التى أحاطها جلال النبوة.. وأنوار الرسالة.. فكان النبى الكريم يجلس فى مسجده والناس يستمعون إليه وهو يبصرهم بأمور دينهم.. ويوضح لهم ما خفى عليهم من أحكام الدين.. وأخذ الإسلام ينتشر بين القبائل بسرعة مذهلة.. فإذا بهذه القبائل تتوافد على الرسول فى المدينة تعلن إسلامها وولاءها.. وتدخل فى دين الله..

الأيام تتوالى.. والناس أكثر سعادة بما أفاء الله عليهم من نور الإسلام.. وبينهم إمام المرسلين.. بما يملك من شخصية بالغة القوة والجلال والمهابة..

إذا تحدث فإن كلماته هى جوامع الكلم..

وإذا صمت فهو البهاء..

وإذا سلك سلوكا فهو الطهر والنقاء..

الرحمة تملأ قلبه..

والعدل سلوكه..

والإنصاف جزء من تكوينه..

والزهد شيمته..

والتواضع صفة من صفاته..

وكيف لا يكون كذلك وخلقه القرآن..

أن المدينة تزدهر بوجود الرسول ..والنور ينبعث منها يبشر بكل الفضائل.. قبائل كانت فى ضلال وجهالة.. بعضها يسجد لأصنام صماء بكماء عمياء.. وبعضها الآخر يؤمن بوجود الله، ولكنهم يتخذون الأصنام وسيلة للتقرب إلى الله! والبعض الآخر يؤمن بأن الحياة الدنيا هى الحياة التى عرفوها ولكنهم لا يؤمنون بما وراء الحياة من بعث ونشور، وبعضهم الآخر عبد الكواكب والنجوم، ومنهم من عبد الجن والشياطين..

مزيج من الخرافات والأساطير كانت تلعب بعقول الناس وأفئدتهم فضلوا وأضلوا.. فما عرفوا لحياتهم هدف.. ولا عرفوا لحياتهم غاية.. فإذا بهم بفضل الدين الجديد تتفتح عقولهم على حياة جديدة مليئة بالنور والهدى والرشاد.. وقد آن لهم وهم يشاهدون الزحف الإسلامى المقدس.. أن يعرفوا الحقيقة..

ولا حقيقة مطلقة سوى الله سبحانه وتعالى الذى خلق كل شئ من عدم.. وهو المتفرد بكل شئ.. وهو الواحد الأحد الذى لا يشبهه شئ فى الأرض ولا فى السماء.. وإن كل موجود من خلقه.. وإن كل شئ مردود إليه.. وإن مصائر البشر بيده.. وهو لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء.. بيده الخير وهو على كل شئ قدير..

والإيمان بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر هو مقومات الدين الجديد الذى يحض على الفضيلة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر..

وبإيجاز شديد جدا.. فقد جعل الدين الجديد للحياة معنى.. لأن الإنسان لا ينتهى بالموت.. والحياة ليست فوضى لا تحكمها قوانين.. ولكن الشرع ..هو قانون الإسلام الذى بمقتضاه يمكن للإنسان أن يتعايش مع مجتمعه.. ويعرف ما له من حقوق وما عليه من واجبات.. تجاه نفسه.. وتجاه أسرته.. كما يعرف ما عليه من واجبات تجاه خالقه.. حتى تسود الرحمة والعدل بين الناس، وتختفى من حياتهم الفحشاء والمنكر، ويستظل الجميع بنور الإسلام، وعدالة السماء.. مجتمع عظيم تفوح منه أريج حقوق الإنسان مما جعل مدينة الرسول واحة للعدل والتسامح والإخاء وكل القيم النبيلة، وسط مجتمعات عاشت تحت وهم أساطير الآباء والأجداد.. فما عرفت لنفسها هدفا أو طريقا، سوى أن يقضوا حياتهم، ثم تنهال عليهم رمال النسيان..

أصبح للمدينة قوة جذب هائلة تتجه إليها قلوب لتقتبس من الهدى النبوى ما ينفعها فى مشوار الحياة.. وتتوجه إليها العقول لتعرف الفرق بين الهدى والضلال.. بين النور والظلام.. بين العدل والظلم.. بين الرحمة والقسوة.. بين مجتمع يسوده قانون الإسلام.. ومجتمع تسوده شريعة الغاب.

إن القبائل كلها تهفو قلوبها لرؤية صاحب الرسالة الذى استطاع بقوة إيمانه.. ورغم الاضطهاد والتعذيب والتنكيل، أن يؤلف القلوب، ويوحد الصفوف.. ويدخل المعارك تلو المعارك.. حتى يحقق هذه الانتصارات الهائلة ويكوّن دولة أساسها دين الله.. بما جاءت به من تشريع سماوى يضمن للفرد والجماعة سعادة الدارين.. فإذا بالقبائل التى كانت تحقد عليه وهى رهينة معتقداتها الفاسدة، تهفو نفسها إلى الانضواء تحت رايته.. وأن

يكون لزعمائها شرف الوقوف بين يديه.. وإذا بمسجد رسول الله يشاهد أفواجا من هذه القبائل التى جاءت لتعلن إسلامها، وتعطى عهودها ومواثيقها، أن تعمل بكتاب الله وسنة رسوله الكريم.

فها هى ثقيف، تتذكر موقفها من رسول الله يوم أراد أن يدخلها الإسلام، فقابلته عليه الصلاة والسلام بما لا يليق.. وها هى ترى انتصاراته العسكرية، وحصاره لها.. وتراه حطم أصنام مكة، وعاد لبيت الله حرمته، فإذا بها تفكر فى موقفها.. وفى اللات التى تعبدها وتقدسها.. واللات كانت صخرة يقدسونها، ويقول بعض الرواة انها كانت شجرة كبيرة !! وسواء أكانت اللات صخرة أو شجرة.. فهو أمر عجيب لا يستسيغه منطق ولا تفكير ..فقد حطم الرسول آلهة مكة، ولم يحدث له منها مكروه.. فلا دافعت هذه الآلهة المزعومة عن نفسها، ولا انتقمت لسخرية الإسلام منها.. مع ذلك فإن أهل ثقيف ابتدأوا يشكون فى قيمة اللات، وإن كان طول عبادتهم لها هم وأجدادهم مازال لها فى قلوبهم هذا الحب المتولد عن العادة التى ورثوها.

وكان أول من أسلم من ثقيف عروة بن مسعود الثقفى. فقد لحق بالنبى بعد فك حصاره عن الطائف، وأعلن إسلامه، وطلب من النبى أن يسمح له أن يعود إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام، وقد حذره النبى بأنهم سوف يقتلونه.. ولما دعا قومه للإسلام قتلوه!

ولكن أهل ثقيف سرعان ما وجدوا أنهم يتصرفون بحماقة، وأن عليهم أن يكوّنوا وفدا على رأسه عبد ياليل ! نفس الرجل الذى عرض عليه النبى الإسلام فى الطائف فاستكبر، وأخذته العزة بالإثم، وأغرى بالنبى السفهاء حتى أدموا قدمه الشريفة.. عبد ياليل هذا هو الذى قرر أهل ثقيف أن يتزعم وفدهم إلى الرسول ليدخلوا الإسلام !

والغريب إن هذا الوفد عندما وفد على النبى ﷺ ليعلنوا إسلامهم، حاولوا أن يشترطوا على الرسول شروطا منافية لروح الإسلام.. فقد عز عليهم هدم اللات وطلبوا من النبى أن يبقيها لهم ثلاث سنوات!.. ولا يؤدون الصلاة فأبى الرسول بالطبع وقال لهم:

- لا إسلام والوثنية قائمة، فلا يجتمع الإيمان والشرك فى قلب إنسان.

وأمر النبى المغيرة بن شعبة، وأبا سفيان بن حرب بهدم اللات.. كما أمرهم أن يقيموا الصلاة لأنها ركن من أركان الإسلام وقال لهم:

- لا خير فى دين لا صلاة فيه.

وأسلم الوفد، وعاد إلى ثقيف، وقد أخفوا إسلامهم أول الأمر، وأخذوا يتحدثون إلى أهليهم عن شروط النبى بهدم اللات، وإقامة الصلاة، وإلا فالحرب.. فإذا بأهل ثقيف يؤثرون السلامة، ويعلنون إسلامهم وأخذ عثمان ابن العاص الذى قد أمره الرسول عليهم يعلمهم أمور دينهم.. وهكذا انضمت الطائف إلى الإسلام مع مكة والمدينة وأصبح هذا المثلث القاعدة الهائلة للانطلاق الإسلامى فيما بعد..

وكم كان النبى عظيما حليما صبورا.. متحملا سخافات الناس من جفاة العرب.. وقد ألان حلمه وكرمه وسعة صدره قلوبهم، فإذا بالإسلام يدخل إلى قلوبهم..

قد جاءه وفد من بنى تميم، وجاء معهم شعراؤهم وخطباؤهم، وكان النبى فى بيته فإذا بصياح بعضهم يعلو وهم يطلبون من النبى أن يأتى إليهم، ويستمع إلى شعرائهم.. ويريدون أيضا أن يناقشهم ويبارزهم فى الشعر شعراء وخطباء المسلمين !

وخرج النبى إليهم وكان ظهرا، فأذن بلال، وتقدم النبى يصلى بالناس صلاة الظهر.. وصلى خلفه الناس، ووفد تميم ينتظر على أحر من الجمر أن ينتهى النبى من صلاته، ليسمع شعراءهم وخطباءهم !

وانتهت الصلاة والتفوا حول الرسول.. وأخذوا ينشدون أشعارا، يمتدحون بها أنفسهم.. وقد رد عليهم حسان بن ثابت شاعر الرسول، بشعره الرزين، فإذا بأحدهم وهو الأقرع بن جابس يقول:

- إن هذا الرجل (الرسول) لموفق، فخطيبه أخطب من خطيبنا، وشاعره أشعر من شاعرنا، وأصواتهم أعلى من أصواتنا!

والخطيب الذى أشاد به الأقرع بن جابس هو ثابت بن قيس الأنصارى، الذى رد على خطيبهم (عطارد بن حاجب) والذى كانت خطبته تفاخر بقومه..

وأسلم وفد بنى تميم.. ونزل قوله تعالى يبين للناس أدب الحديث مع رسول الله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ٢ - ٥].

وأخذت الوفود تتوافد على مدينة الرسول تعلن ولاءها وإسلامها. غير أن هناك حادثة يرويها حول وفد بنى عامر، الذى كان فيهم عامر بن الطفيل، وكان عامر هذا يريد أن يغدر برسول الله هو وصاحب له اسمه أربر واتفق معه صاحبه هذا على خطة الغدر، وقال لقومه مستعليا عندما طلبوا منه أن يدخل الإسلام:

- والله كنت آليت ألا انتهى حتى تتبع العرب عقبى، أفأنا أتبع عقب هذا الفتى من قريش!

وقال لأربد:

- إذا قدمنا على الرجل (يقصد النبى) فأنا سأشغل عنك وجهه، فإذا فعلت ذلك فاعله بالسيف!

وعندما قدموا إلى الرسول طلب عامر من النبى أن ينفرد به بحجة أنه يريد أن يتحدث معه، ولكن النبى طلب منه أن يعلن إسلامه أولا، فرفض عامر وقال للرسول متوعدا:

- أما والله لأملأنها عليك خيلا ورجالا.

وعندما مضى قال النبى:

- اللهم أكفنى عامر بن الطفيل.

وخرج عامر غاضبا مع صديقه الذى لم يحقق ما اتفقا عليه من غدر بالنبى.. فقال له أربد:

- والله ما هممت بالذى أمرتنى به من أمره إلا دخلت بينى وبين الرجل، ما أرى غيرك، أفأضربك بالسيف؟

وفى طريق العودة بعث الله على عامر بن الطفيل الطاعون فى عنقه، وقتل فى بيت امرأة من بنى سلول..

أما أربد فقد نزلت عليه صاعقة من السماء فاحترق مع جمله.

ومن المواقف التى يرويها الرواة أيضا حول هؤلاء الوفود، ما رووه عن وفد بنى سعد بن بكر إلى رسول الله الذى كان يمثله رجل اسمه خمام بن ثعلبة.. فقد تقدم هذا الرجل إلى مسجد الرسول، ونزل عن ظهر بعيره، ثم متجها إلى النبى عليه الصلاة والسلام حيث كان يجلس فى مسجده يستقبل الوفود القادمة من كل مكان.. وتقدم الرجل إلى النبى وهو بين أصحابه وقال:

- أيكم ابن عبد المطلب؟

ورد عليه الرسول الكريم:

- أنا ابن عبدالمطلب.

ودار بينهما هذا الحوار:

- يا ابن عبد المطلب انى سائلك ومغلظ عليك فى المسألة، فلا تجدن فى نفسك.

- لا أجد فى نفسى فسل ما بدا لك.

- أنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك أالله بعثك إلينا رسولا؟

- اللهم نعم.

- فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من كان بعدك، الله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده ولا نشرك به شيئا، وأن نخلع هذه الأنداد التى كان آباؤنا يعبدون معه؟

- اللهم نعم.

- فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك، أالله أمرك أن نصلى هذه الصلوات الخمس؟

- اللهم نعم.

وأخذ الرجل يسأل النبى عن فرائض الإسلام وشرائع الإسلام والنبى يجيب على أسئلته.. حتى إذا ما انتهى من هذه الأسئلة أعلن إسلامه، وقال للنبى:

- سأؤدى هذه الفرائض، وأجتنب ما نهيتنى عنه ثم لا أزيد ولا أنقص.

وانصرف، حيث ركب بعيره متجها إلى قبيلته، وقال النبى كلمته الشهيرة:

- أفلح إن صدق.

وفى رواية أخرى: إن صدق ذو العقيصتين دخل الجنة.

وعاد الرجل إلى قومه الذين اجتمعوا حوله يريدون معرفة ما تم بينه وبين محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، فقال لهم:

- بئست اللات والعزى.

قالوا له:

- مه يا خمام: اتق البرص، اتق الجذام.. اتق الجنوّن.

قال لهم:

- ويلكم إنهما والله لا يضران ولا ينفعان، إن الله قد بعث رسولا، وأنزل كتابا استنفذكم به مما كنتم فيه، وإنى أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به، وما نهاكم عنه.

وقد أسلم كل رجال ونساء قبيلته.

وأخذت الوفود تتوافد بكثرة من كل الأرجاء إلى مسجد الرسول.. حتى من الأماكن النائية من شبه الجزيرة، فحضرت وفود من اليمن، وحضرموت والبحرين وعمان.. تعلن إسلامها وولاءها.. ومن طرائف ما يرويه الرواة انه كان من بين هذه الوفود وائل بن حجر الحضرمى، وكان أميرا لحضرموت واليمن وقد استقبله النبى بكرمه المعهود، وأمر معاوية بن أبى سفيان أن يقوم بدور المضيف لوائل، حيث ينزل فى دار له فى واحة ويقوم على ضيافته، وكان الجو حارا، وركب وائل راحلته بعد أن رفض طلباً لمعاوية أن يركب ردفا له على الراحلة وطلب منه معاوية أن يعطيه نعله ليقيه شر الحر، فرفض الرجل أيضا وقال لمعاوية:

- ماذا يقول الناس عنى إذا سمحت لمثلك من عامة الناس باحتذاء نعلى!!

ولما بلغ ذلك النبى أنكر هذا التصرف باعتباره من مخلفات الجاهلية!

هل كان يدرى أن هذا الشاب الذى يسير خلفه حافى القدمين تنفيذا لتعليمات النبى الكريم له بإكرام هذا الضيف القادم من أطراف شبه الجزيرة سيصبح بفضل هذا الدين، واحدا من أكبر القادة وسوف يصبح حاكما على امبراطورية بالغة الاتساع والازدهار تدين بدين هذا النبى الخاتم الذى جاء للناس هاديا ومنذرا وبشيرا!

وفى هذا العام أمر النبى أبا بكر الصديق أن يحج بالمسلمين وخرج الصديق فى ثلاثمائة من المسلمين قاصدين مكة.. وعندما أخذ الصديق طريقه إلى مكة نزلت سورة (براءة).. وفيها تحريم على المشركين بالحج والطواف حول الكعبة عرايا كما كانوا يفعلون فى الجاهلية.. فأرسل النبى على بن أبى طالب إلى الصديق حتى ينفذ أمر الله بعدم دخول البيت الحرام مشرك بعد اليوم.. وعندما رأى الصديق عليا سأله:

- أمير أم مأمور؟

- بل مأمور.

وعندما اجتمع الناس فى (منى).. ووقف على بن أبى طالب، وكان بجانبه (أبو هريرة).. وأخذ يتلو على الناس من سورة التوبة:

﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ

عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١ - ٥].

قرأ عليهم هذه الآيات حتى قوله تعالى:

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦].

ثم قال على فى الناس:

- «أمرت بأربع: لا يقربن البيت بعد هذا اليوم مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يدخل الجنة كافر.. ومن كان بينه وبين النبى عهد فعهده إلى مدته، ومن لم يكن له عهد فهو إلى أربعة أشهر».

وإذا كان بعض المشركين قد أخذته العزة بالإثم عندما سمعوا من على هذا، إلا أنهم سرعان ما فطنوا إنهم لا قبل لهم برفع السيف فى وجه نبى الإسلام، فقد انتهى هذا الزمن، وما عادت هناك قوة تستطيع أن ترفع السيف فى وجه رسول الله، وما عليهم إلا الإذعان لما جاء به وحى السماء..

وأصبح واضحا بعد إعلان (براءة).. إنه لا مكان فى مهبط الدعوة للشرك والمشركين، فالله برىء منهم.. وما على المشركين بعد انتهاء المدة التى حددها لهم الرسول وهى أربعة أشهر، أو عندما تنتهى المهلة إذا كان بين بعضهم مهلة إلى انتهائها، إلا الدخول فى الإسلام، أو الاحتكام للسيف.. والمدة التى أعطاها لهم النبى هى فترة للتدبر فى شئونهم، وأخذ موقف مع أو ضد الإسلام.. وهكذا لم يجد المشركون بدا من الدخول فى دين الله.. وهذا ما سوف نلحظه عندما حج النبى بالناس بعد ذلك بعام، وكان حوله مائة ألف يحجون معه!

أصبح موقف الإسلام واضحا من أهل الكتاب، فلهم حرية الاعتقاد، إما أن يسلموا، وإما أن يظلوا على دينهم، فإن دخلوا الإسلام أصبح لهم ما للمسلمين من الحقوق والواجبات، وإن ظلوا على اعتقادهم فعليهم دفع الجزية والجزية لا يدفعها الأطفال، أو النساء، أو كبار السن، والمنقطعون للعبادة منهم فى الأديرة!

وظلت الوفود تتدفق طوال العام التاسع والعاشر الهجرى.. فكان النبى يرسل مع هذه الوفود من يفقههم فى الدين.. وهكذا ارتفعت راية الإسلام.. ودعمت أركانه، وتكونت فى شبه الجزيرة دولة إسلامية راسخة البنيان.. يحكمها شرع الله.. قانونها القرآن الكريم، وما فيه من أحكام وما فيه من تشريع، وسنة رسول الله ﷺ، التى كانت تشرح للناس ما عمى عليهم من فهم أمور الدين، وتبين لهم ما ينبغى أن تكون عليه العلاقة بين الناس وخالقهم من إيمان به وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وما فرض عليه من صلاة وصيام وزكاة.. فإذا بالجزيرة العربية لأول مرة تشعر بقوتها.. وتشعر بكيانها.. وتشعر هذه القبائل التى جمعت تحت راية واحدة، وتتجه إلى قبلة واحدة، بأنها أصبحت من القوة بمكان، فلم تعد تخشى بأس الامبراطوريتين الكبيرتين اللتين تتاخم حدودهما أرض شبه الجزيرة العربية، وشعروا فى نفس الوقت بمدى اعتزازهم بهذا الدين الذى جعلهم من بعد الضعف قوة، ومن بعد الهوان عزة، ومن بعد الضعة رفعة..

وأصبح الإيمان فى القلوب يضىء البصائر.. ويجعل للحياة معنى.. وهدفا وغاية..

فلم تعد الحياة كما كانت فوضى يحكمها قانون الغاب.. إنما أصبح للحياة مذاقاً آخر.. فالذى يحكمهم هو قانون السماء.. ولهم فى رسول الله الأسوة الحسنة..

والقرآن والسنة وضحا للناس حقوقهم من مواريث وتعامل فيما بينهم..

وأوضحا لهم حدود الله التى لا ينبغى لأحد أن يتعداها وإلا أقيم عليه الحد.. مجتمع نظمه كتاب الله وسنة رسوله، فأصبح يفوح بأريج المحبة والطهارة.. والفضيلة.. وشريعة الله قادرة على تهذيب النفوس، وتقوية الإرادة، وخلق إنسان مثالى فى تعامله مع نفسه.. ومع مجتمعه.. ومع خالقه.. فلا قهر.. ولا ظلم.. ولا استبداد.. ولا خنوع ولا خوف ولا عبودية..

حتى الرقيق فى الإسلام حدد الله لهم موقفهم.. فالرقيق إنسان، ولا فرق بينه وبين الحر أمام الله، ما دام يعمل بما أملته به شريعة الله.. فالناس كأسنان المشط.. لا فرق بين إنسان أو آخر إلا بالتقوى.. وأتاح الإسلام من الظروف ما يلغى الرق على مراحل.. فقد قال الله تعالى:

﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٣٦].

والنبى يقول:

- «من أعتق رقبة مسلمة أعتق الله بكل عضو منه عضوا من النار»..

- وقد روى مسلم عن ابن عمر أن النبى قال:

- من ضرب غلاما له حدا لم يأته أو لطمه فإن كفارته أن يعتقه.

وقد روى الشيخان عن المعرور بن سويد قال: «رأيت أبا ذر رضى الله عنه وعليه حلة وعلى غلامه مثلها فسألته عن ذلك فذكر أنه ساب رجلا على عهد رسول الله ﷺ فعيره بأمه فقال النبى عليه الصلاة والسلام: أنك امرؤ فيك جاهلية هم إخوانكم وخولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم.. فأعينوهم عليه».

رسالة بكل هذه النضارة والروعة والشموخ، لها كل مقومات الانتشار، جديرة أن تغزو القلوب والعقول.. وهذا ما حدث بالفعل.. فقد انتشر نور الله وبات واضحا وقد وصل المد الإسلامى إلى كل هذه الأرجاء واتضحت معالم الرسالة،.. إن مهمة الرسول، قد أوشكت على الاكتمال.. وانه بلغ الرسالة.. وحمل الأمانة على أكمل وجه.. و.. اقترب الرحيل إلى الملأ الأعلى.. إلى أكرم جوار..

* * *

دخل العرب فى دين الله أفواجا من كل صوب ومن كل حدب.. ووجد العرب أن لا مستقبل لهم إلا بالإسلام ونور الإسلام.. وأن لا معنى للحياة بدون هذا الدين الذى جمع لأول مرة العرب فى وحدة واحدة.. تظلها راية واحدة.. ويتجهون إلى قبلة واحدة، ويلم شملهم قبل كل ذلك عقيدة واحدة.. تؤمن بالله خالقا لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء.. وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.. وإذا كانت قد بقيت بعض المناطق فى شبه الجزيرة على جاهليتها فقد آن لها هى الأخرى أن تستظل براية الإسلام.. أرسل النبى بخالد بن الوليد فى سرية إلى بنى الحارث بن كعب بنجران، وقد عرض عليهم الإسلام أو القتال، فآثروا الدخول فى دين الله.. وجاء وفد منهم بصحبة خالد بن الوليد إلى المدينة وبايعوا النبى ﷺ وأرسل معهم النبى عمرو بن حزم الأنصارى ليفقههم فى أمور الدين..

وإذا كانت الوفود قد جاءت من كل صوب وحدب لتعلن ولاءها للإسلام، فقد جاء وفد من بنى حنيفة من بين الوفود التى جاءت لمبايعة النبى من اليمامة، وكان من بين هذا الوفد مسيلمة بن حبيب.. وقد طمع هذا الرجل وقد هاله ما كان عليه من المهابة والجلال، أن يكون له دور فى الحياة فى اليمامة فادعى النبوة، وادعى انه أشرك مع النبى فى النبوة، وأرسل إلى النبى كتابا يقول فيه:

- سلام عليك، فأنى قد أشركت فى الأمر معك، وأن لنا نصف الأرض ولقريش نصفها، لكن قريشا قوم يعتدون!

وعندما سأل النبى الرسولين اللذين بعثهما مسيلمة بالكتاب عن رأيهما فيما يدعيه مسيلمة، قالا إنهما يؤمنان بما يقول، فقال لهما الرسول الكريم:

- «أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما».

وكتب النبى عليه الصلاة والسلام إلى (مسيلمة):

- «من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب.

سلام على من اتبع الهدى أما بعد..

فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين».

وكان مسيلمة عندما ادعى النبوة، قد التف حوله عدد كبير من أهل اليمامة، بعد أن نجح فى أن يزكى فيهم روح العصبية، ويبيح لهم، ما حرم القرآن، وقد قضى على هذا الكذاب فى عهد خليفة رسول الله أبى بكر الصديق.

كما أوفد النبى عليه الصلاة والسلام إلى اليمن على بن أبى طالب ليخضع من لم يخضع إلى دين الله، وكان على فى سرية من ثلثمائة رجل، وقد استطاع على أن يوطد دعائم الإسلام فى اليمن، بهذا العدد القليل من الرجال، وأرسل النبى معاذ بن جبل إليهم يعلمهم الدين.. وهو من اليمن.. وكان وفد اليمن الذى ذهب لإعلان إسلامهم أمام النبى هو آخر الوفود التى قابلها الرسول الكريم قبل رحيله إلى أكرم جوار..

فقد كان العام العاشر الهجرى وما قبله من الأيام الأخيرة فى حياة أكرم الرسل هو العام الذى استقبلته كل هذه الوفود التى جاءت من كل مكان من شبه الجزيرة.. النبى يلقاهم.. ويفقههم فى الدين ويرسل معهم من يوضح لهم تعاليم الإسلام.. وكان النبى ﷺ يجلس مع أصحابه فى مجلسه فى

المدينة.. يتلقون عنه ما ينير لهم طريق الحياة.. فهى فترة عزيزة غالية فى تاريخ الدعوة..

وقد وضح لهم النبى منهاجا لفهم سنته، فسنته تتفق مع القرآن الكريم.. وأى حديث لا يتفق مع القرآن فهو حديث موضوع لا يمت للنبى بصلة.. فقد كان النبى يعرف بإلهامه وشفافية روحه أن هناك من سوف يتجرأ حتى على رسول الله فيكذب عليه.. ومن هنا فقد قال:

- «اتقوا الحديث عنى إلا ما علمتم، فمن كذب على فليتبوأ مقعده من النار»..

وقال أيضا:

- «إذا سمعتم الحديث عنى تعرفه قلوبكم، وتلين له أشعاركم وأبشاركم وترون أنه بعيد فأنا أبعد منه».

ولم تقتصر تعاليم النبى على الرجال، فقد كان يفقه المسلمات فى أمور الدين.. عندما طالبت النساء أن يخصص لهن بعض وقته ليفقههن. وليعرفهن تعاليم شرع الله.. ووافق النبى على ذلك.. وكانت نساء النبى يحضرن هذه المجالس..

وكانت عائشة أم المؤمنين، تحفظ الكثير من أحاديث الرسول.. وبذلك كانت تصحح لمن يخطىء فيها، كما انها فهمت الكثير مما يخص المرأة فى أمور دينها، فكانت تشرح للنساء ما خفى عليهن من هذه الأمور، فتعلمهن الطهارة.. والوضوء وغير ذلك مما فرض الله كما عرفته عن قرب من رسول الله..

وكانت عائشة غاية فى الذكاء فمما يروى عنها مثلا.. انها سمعت أن عمر بن الخطاب قال نقلا عن رسول الله:

- «إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه»..

فقالت عائشة:

- رحم الله عمر.. والله ما حدث رسول الله ﷺ: «ان الله يعذب المؤمن ببكاء أهله عليه»، ولكن رسول الله قال:

- «ان الله ليزيد الكافر عذابا ببكاء أهله عليه».

ثم وضعت هذه القاعدة الذهبية، التى أوصى بها النبى ﷺ إن يكون الحديث مطابقا للقرآن الكريم فقالت:

- حسبكم القرآن: ولا تزر وازرة وزر أخرى..

وليس معنى ذلك أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كذب أو حرف فى حديث سمعه من رسول الله. فحاشا لعمر أن يفعل ذلك، ولكن قد يكون لسبب من الأسباب قد سمع جزءا من هذا الحديث ولم يسمع بقيته..

وهذا يعنى أن السند مهما كانت قوته لا يغنينا عن دراسة نص الحديث ومدى مطابقته لكلام الله، وألا يكون منافيا له.

وقد روت السيدة عائشة، كما روت أمهات المؤمنين أحاديث عن رسول الله، وتحدثت عن كثير من الأمور التى كان يقوم بها النبى ورأتها عن قرب كعبادته، وتهجده، وصومه، وعن سلوكه فى الملبس والمطعم، وعن زهده وورعه وتقواه..

* * *